تجليات الأنا بين الانكسار والاعتداد أمام الآخر في شعر علي بن الجهم

م.د. رائد عكلــة خلــف
كلية الآداب -جامعة الأنبار

استلم: ٤/ ٣ /٢٠١٨ النشــر: ٢ / ١٢ / ٢٠١٨

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن تجليات الأنا الشعرية عند الشاعر علي بن الجهم، والتعبير عنها فنياً من خلال خصائصها الانسانية والوجدانية، التي اخذت تتلون مع تجربته الشعرية، فظهر بذلك تناقض في المواقف، وهذا التناقض يعود إلى رؤية الشاعر في تعامله مع الواقع وتغيراته، وقد اقتضت هذه الرؤية دراسة التجليات من خلال مبحثين، الأول يكمن في انكسار الذات أمام الآخر، والثاني يظهر النقيض حيث الاعتداد والكبرياء، فكانت التجربة الشعرية هي الوعاء الذي جسد لنا مسار الأنا وتوجهاتها الشعرية أمام الآخر.

Abstract

The paper aims at investigating the poetic images of "I" in the poetry of Alibin gahm and expressing them artistically within their humantic charistristics which have been differing with his poetic experiement .This hassled to appear adistinction in situ aticns .Thus'that distinction is dueto the poet's poion of view in dealing with the everyday life and its changes through out tow searches ; The first one sheds light on the broken of theseif in front of others whereas,the second shows the other where the pride and dignity.

المقدمة

تعرَّف (الأنا) الإنسانية على حسب ما يراها علماء النفس، بإنها ((هي فكرة الشخص عن نفسه ، أو نظرة الشخص إلى نفسه باعتباره مصدر الفعل))(١) أو هي ((التنظيم المنسق والدينامي لصفات الفرد الجسمية والعقلية والاخلاقية والاجتماعية ، حسب تجليها في مجال الأخذ والعطاء داخل الحياة الإنسانية))(٢) وهي كذلك ((المفهوم الذي يكونه الفرد عن نفسه باعتباره كائناً بيولوجياً اجتماعياً أي باعتباره مصدراً للتأثير والتأثر بالنسبة للآخر))(٣)

وعلى وفق ذلك المفهوم يراد بتجليات (الأنا) الشعرية ، هي التعبير عن الأنا فنياً ، وظهور خصائصها الإنسانية في التجربة الفردية لدى الشاعر ، فالقصيدة هي الملاذ الذي تتجلى فيه ذات الشاعر وحالة الوجدانية التي تتلبسه وتملأ عليه أعماقه ، الأمر الذي من شأنه أن يضرب هذا اللون في الاستغراق في هموم الذات

وانفعالاتها الخاصة إلى ما يشبه السيرة الذاتية المعبّر عنها تحت وطأة الانفعال الذي يذيب الحوادث والخواطر ويلونها بلونه (٤) . وهذا التعبير عن الحالة الوجدانية للشاعر لا بد أن يكون له طرفٌ آخر يشاركه في الانفعال ، وهذا الطرف يتمحور في (الآخر الذي يحمل أبعاداً اوسع ليشمل الإنسان والواقع والتاريخ والزمان والمكان ...) ، هذا الآخر الذي لا يمكن الاستغناء عنه ؛ لأنه التجربة نفسها التي تتعايش معها (الأنا) ، فتظهر بذلك ازدواجية ترسم حدود الصراع بين الطرفين ، وهذا التباين في الموقف يعود اساساً إلى رؤية الشاعر، التي تنطلق من الواقع وتناقضاته ، وتكشف عن الإنسان وقضاياه واشكالاته مع العالم ، بوصفه يجيد إدارة دفة الصراع مع الحياة ، فتجربته الشعرية تمنح الواقع توهجاً ودلالات جديدة ، لهذا قد تتبدى للمتلقي بعض التناقضات التي يصعب عليه إيجاد مسوغات لها في مدى ثبات انسياب تيار الذاتية عند الشاعر . وهذه التناقضات للأنا لدى الشاعر سوف ندرسها في محورين هما :

الأول : تجليات الأنا المنكسرة أمام الآخر

الثاني : تجليات الأنا المعتدة أمام الآخر

لتكون التجربة الشعرية بذلك هي الوعاء الذي يحدد مسار الأنا وتوجهاتها بحسب طبيعة الموقف الذي تكون عليه ؛ ولتظهر سلوكية الأنا عندما تكون بين القوة والضعف في مجابهتها للآخر .

أولاً : تجليات الأنا المنكسرة أمام الآخر

إنَّ الحياة الإنسانية مليئة بالمتاعب، وتكاد لا تخلو من ضغوطات قاسية تجعل الإنسان في كثير من الأحيان يضعف ويستكين ويصبح عاجزاً أمامها، فتظهر عليه ملامح الانكسار في تعامله مع الآخر(٥) ، وهذا ما بدا على شاعرنا إذ ظهرت تجليات الأنا المنكسرة من خلال المواقف الزمانية والمكانية والإنسانية . فكان للآخر (المكان) أثرٌ كبير في انكسار علي بن الجهم ، إذ تعلق به تعلقاً غريباً حاله حال الكثير من الشعراء ، فهو حقيقة معينة ويؤثر في البشر بالقدر نفسه الذي يؤثرون فيه (٦) ، فتظهر بذلك قدسية لاسيما حينما يرتبط بالوطن ، حتى يكون الصراع بذلك قائماً بين الأنا والآخر (الأحبة) إلى أن يتم التلاؤم التعبيري بينهما في البيت الشعري الواحد، أنه الانتماء والوعي بحقيقة الآخر يرسمها لنا الشاعر :

أزيد في الليـــــــيلِ ليلُ ... أم سـال بالصَّبح سيلُ
يا إخـــــــــوتي بدجيلٍ ... وأين منّي دجـــــيلُ (٧)

تتجلى هنا ذاتية منكسرة ، يلفها الحنين والضعف ، تجترح فيها المشاعر الحزينة إذ تظهر حاجة الشاعر إلى الآخر سواء بالمكان (الوطن) أو الآخر (الأحبة) ، هذا الانكسار الذي دفعه إلى أن يتوحد مع الآخر انطلاقاً من الشعور بالحاجة إليه،فالمسافة باتت شاسعة بين الأنا والآخر حتى اصبحت أضيق من حلقة الخاتم:

كأن بـــــلاد الله حلقة خـــــاتمٍ ... عليَّ فما تزداد طـــولاً ولا عرضا
وأني أرى بالقـــيروانِ أحـــبتي ... واعتاضُ من ضنكٍ مُنيت به خَفضا

إلى اللهِ أشكـــو كربتـــي وتغرُّبي وما راب من صرفِ الزمانِ وما مضّا (٨)

هذا التشوق عند علي بن الجهم يظهر أناه المنكسرة ، وهي تتجرع مرارة البعد والضنك والمعاناة لفقدانه الآخر (الأحبة) الذين يستحيل اللقاء بهم ، فجاءت أحرفه تترجم ما تمليه عليه نفسه، إذ جاءت الأحرف الانفجارية والاحتكاكية في الابيات مثل : الكاف والتاء والشين والضاد والياء ؛ ليعبر من خلالها عن المعاناة الصاخبة التي يحسها ، ولعلنا لا نبالغ في هذا التفسير فالنص يتشكل وفقاً للحالات الشعورية والرؤية الفكرية للشاعر ، وتأتي الاصـــــوات تعبيراً عن هذه الحالات الشعورية (٩) . وقد أسهم الآخر (المكان) في تشكيل التجربة الشعرية لـ(انا) الشاعر، إذ تحولت لتكون (الآخر) الشاعر، فهو يقول على لسان الغريب:

وارحمتا للغريب في البلد النَّا زح مـاذا بنفســـهِ صنعا
فارقِ أحـبابهُ فما انتفعـــوا بالعيشِ من بعده ولا انتفعا
كان عزيـزاً بِقربِ دارهمُ حتى إذا ما تبـاعدوا خشَعا
يقول في نائـــهِ وغُربتِهِ عدلٌ من اللهِ كلَّ ما صَنَعا(١٠)

يتحدث الشاعر في الظاهر عن شخصية أخرى ، وهي في الحقيقة لا يعني بها إلّا ذاته وكأنه لا يريد أن يواجه الموقف الصعب مباشرة ، موقف هذه الغربة القسرية فجعل الشخصية الوهمية تعاني هول الموقف ، وتستوقفنا صيغة الندبة التي غرسها في مطلع البيت الأول في قوله (وارحمتا) وهي صيغة تستخدم في مواطن الثكل والفقد والتفجع في الغالب، وكأن الشاعر يفترض أن هذا الآخر – الشاعر نفسه – هو في حكم الميت الذي ينعى ليتم التفجع عليه . وقد احدث الآخر(المكان) تأثيرا قاسياً في (الأنا) الشعرية ، وهذا ما بدا واضحاً في منفاه (الحبس) ، فهو استلب حريته وشخصيته ، فضلا عما فيه من حزن وعجز وضيق ومعاناة دائمة . فقيمة المكان تكمن في ساكنيه وكلما بدت المسافة بعيدة عن معطيات هذا المكان كان الانفلات والتشتت حاضراً لدى الأنا ، تبعاً لدواعي الموقف واستجابة تلقائية لما يبعثه هذا الشخص من استنكار للفعل في حد ذاته . وهذا التصور من شأنه أن يحيل المتلقي إلى مفردات شتى تتعلق جميعاً بالمعطيات التي يمارسها الآخر (السلطة)، إزاء المكان المغلق لتجعل (الأنا) الشاعر غائبة عن المكان الأليف الذي يحبه ويتوق إليه، فتراه يقول:

ما زلت أســـمع أنَّ الملوكَ تبني على قدرِ أخطـــارِها
فلما رأيـــنا بـــناء الإمام رأينا الخـــلافة في دارها
وكـنا نعدَّ لهـا نـــخوةً فطأمنتَ نخـوةَ جبَّـارها

فلا زالتِ الأرض معـــمورةً بعمرِكَ يا خـــير عُمَّارها
تبوأت بعدك قعر الســـجونِ وقد كنتُ أرثـــي لزوَّارها (١١)

فانكسار (الأنا) وهي تتوسل بالآخر (السلطة) ، تظهر أحلاماً باتت مؤجلة ومعاناة نفسية حادة ، ازاء هذا المكان المقيد والمغلق ، وهي تمني النفس بالسلطة أن يكون لها الكلام الفصل بذلك ((فلا زالت الأرض معمورة .. لعمرك يا خير عمَّارها)، فصار الآخر فضلاً عن المكان ، هو المعنى الذي يتحكم في إيقاع القصيدة ويوزع معانيها ، وهذه الانكسارية لا تنفي أن (الأنا) الشاعر تحاول استقطاب الآخر ؛ للاقتراب أكثر من الهيمنة وحب الاستحواذ ؛ لأن (الأنا) يقدم نفسه فريسة غير قابلة للاحتواء من قبل الآخر، فالفعل وفاعله (تبوأت) فيه إشارة إلى مدى السخرية والاستهجان بالذات ، والتنبؤ هنا يعبر عن منطقة الانتقال من المكان المفتوح إلى المكان المغلق ، وهي مقارنة صنعها الشاعر للاستهجان بنفسه وخلق علاقة غير متكافئة بنفسه وبين الآخر سببها (قعر السجون .. وقد كنت ارثي لزوارها) .

ويبدو أن كل هذه التنويعات لدى الشاعر تمثل استحضاراً للمكان الذي ينشده ويتوق إليه ويتوحد معه ، وهذا الموقف هو موقف أيدلوجي إنساني تحاول فيه الذات أن تنتظر مع الآخر ، وصولاً إلى نقطة ترتكز عليها ؛ لإعلان انتمائها إلى المكان المفتوح الذي يحقق لها ذاتها وتستنشق منه عبير الحرية ، لذا لا مناص أمام (الأنا) الشعرية عندما نجد أن (الآخر) السلطة لا تحقق ما تطمح به ، فيكون التوجه والخضوع والاستسلام والاستكانة إلى الخالق علَّه يفرج عنه ما حل به من الكرب ، فجاءت ابياته على لسان (الأنا) الـ (نحن) ، إذ يقول:

إلى الله فيما نابنا نرفـــــع الشّكوى ... ففي يدهِ كشــفُ الضَّرورةِ والبلوى
خَرجـــــنا مِن الدنيا ونحنُ من اهلها ... فلسنا من الأحياء فيها ولا المـــوتى
إذا جاءنا الســــــجَّان يوماً لحاجةٍ ... عجبنا وقُلنا جـــاء هذا من الدَّنيا
ونفرحُ بالرَّؤيا فجـــلَّ حديـــــثنا ... إذا نحنُ أصبحنا الحديث عن الرَّؤيا
فإن حَسُنت لم تأتِ عجلى وأبطـــأتْ ... وإن قُبحت لم تحتبس وأتتْ عجلى (١٢)

إنّ المتأمل في النص يجد أن (الأنا) الشعرية جاءت لتتحدث عن الجماعة ، بمعنى آخر انصهرت ذاته – الواحد – مع الجماعة –الكل- في بيان معاناتهم مع الآخر (السجن) ، فهو عبّر عما يشعر به غيره من السجناء بهذا الشعور الجمعي والمتمثل ب(النحن) وهذا يمثل على رأي فرويد الأنا الأعلى ، وهو صوت المجتمع في نفوسنا وصاحب العقل المبدع عما ابدع (١٣) ، لتظهر بذلك علاقة تلازمية بين الأنا والانتماء ، تنوع فيها التلازم (الانتماء) بتنوع العلاقة الانسانية في مكان وزمان محددين ؛ بهذا الشكل ((يصبح التزام الشاعر وغيره بالجماعة التزاماً بوجودها واهدافها وتطلعاتها ، هذا هو الشرط الأول للانتماء الفاعل ، أما الشرط الثاني فيلتزمه الشاعر في شعره ، ليصبح شعره استجابة فطرية وموضوعية لتلك الآمال العريضة للجماعة ، فشعره يمس حياتها على نحو مباشر أو غير مباشر)) (١٤).

ولايخفى ما في النص من الالفاظ لتدل على معاناتهم في داخل السجن ؛ ولتكشف عن واقع مظلم منقطع عن الحياة (الضرورة ، البلوى ، خرجنا ، لسنا من الأحياء ولا الموتى ، عجبنا ، نفرح بالرؤيا) ، فإيقاع هذه المفردات يقودنا إلى الأنا الشعرية ، وهي في أقسى حالاتها ، وكأنها في عالم آخر يتوسط الأحياء والأموات ، عالم يفرح برؤية الحياة التي كان السجّان رمزها ، إنها أنا الشاعر المنكسرة ، وهي باتت تبث شكواها إلى الله عز وجل . وربما لزم الأمر أن نضيف ، بأن خطاب الشاعر يتمركز حول الذات على نحو يدلنا على أن هذه الذات لا تظهر بطابعها المهمين إلّا بأفقها الشعري ، الذي يرتقي إلى عمق التجربة لتتحد مع (الآخر) وتتزاحم معه شعرياً ، بوصفه صاحب مشهد تقابلي ، وهذا الذي يجعل الذات تلقي بأعبائها على الآخر ، ونقصده هنا (الزمن) وتترك له حرية الفعل والانطلاق ، مبينة في ذلك الحاجة السيكولوجية الحادة إلى من تبث بشكواها وغربتها وحنينها ، وهذا الأمر متوقع فالشعور بالوحدة هو الذي يحدد علاقة (الأنا) بالآخر ، وقد يجعلها علاقة غياب وانفصال مثلما هي مشاعر اللامنتمي التي نلحظها في هذا النص :

كم قد تجهَّمني السَّرى وأزالني ... ليلٌ ينوءُ بصدرِهِ متطـــاولُ
وهززتُ أعناقَ المطيّ أسُومـها ... قصداً ويحجُبها السَّوادُ الشّـاملُ
حتى تولّى الليلُ ثانـــي عطفِهِ ... وكأنَّ آخرهُ خضـــابٌ ناصلُ
وخرجتُ من أعجـازِهِ وكأنَّما ... يهتزَّ فـــي بردَيَّ رمحٌ ذابلُ
ورأيتُ أغبـاش الدَّجى وكأنَّها ... حزقُ النَّعام ذعرنَ فهي جوافلُ
وحميتُ أصحابي الكرى وكأنَّهم ... فوقَ القلاصِ اليعملاتِ أجادلُ (١٥)

ينهض هذا النص بلغة كثيفة تتصارع بها الافعال الماضية والمضارعة الممثلة للذات المنكسرة من الآخر(الليل) ، فضلاً عن الاسماء والمسميات التي تجعل المشهد يضج بالحركة والصور والالوان ، (تجهمني ، أزالني ، هززت ، تولى ، خرجت ، رأيت ، حميت) هذا الليل الذي طال امده حتى ضاق به فجعله يتخبط على غير ذي هدى ، ومع هذا الانكسار اصبحت ذات الشاعر تتأرجح لتأتي بأمل جديد يمثل التحرر من الآخر ؛ ليعلن بذلك انتهاءه (حتى تولى الليل ثاني عطفه ..) ، عندئذٍ يمكننا القول : إن تخيلات الشاعر هي صور داخلية لتعبير خارجي يقصد من وراءه الانعتاق من سلطة الماضي، واقامة نوع من ((التفاعل بين الحلم والواقع ، بين الإيحاءات المنبعثة من عالم اللاشعور والمجهود العقلي الذي يبذله الفنان في صياغة هذه الإيحاءات في صورة قادرة على أن تحقق التجاوب)) (١٦) .

ولكن ما تجدر الاشارة إليه هنا أن قصيدة الرؤية تخضع لمجموعة من الاشراقات التي تسمح للذات بأن تقوم بوظيفة إيحائية على أن مكانها هو مكان الشعور الداخلي الذي يسمح في استرجاع (الأنا) لذكرياتها أمام (الآخر) ؛ لكونها اكثر جذرية والتصاقاً بها ، بل هي اكثر من ذلك ((سمة تحايث الذات وتلازمها

بحيث تمتزج وإياها في وحدة لا فكاك لأواصرها)) (١٧) ، فنحن هنا بإزاء تبادل تجادلي بين قطبي الداخل (الذات) والخارج (الآخر) ، فرؤية الذات هي انعكاس لرؤية الآخر بوصفه جزءاً ليس بالمستطاع التخلي عنه بسهولة الأمر الذي يربك الذات ، ويجعلها في موقف تصارعي يتجلى فيه الصراع ما بين الخارج المتحرك والداخل الذي يكتنفه الخوف والاضطراب ، لاسيما عندما تتغير الظروف وتزداد حدة بظهور نذور التغيير والتحول والمتمثل هنا ، بالآخر (الشيب) الذي يعد وجوده علامة من علامات الضعف والانكسار وكبر السن ، فتأتي تأوهات الشاعر لترسم معاناة (الأنا) ، وهي تحاول أن تتصارع مع الآخر (الشيب) من اجل اثبات الذات المحطمة ، يقول علي بن الجهم :

حَسَرتْ عنِّي القنـــاعَ ظلومُ ... وتولَّت ودمُعها مسجومُ
أنكرتْ مـا رأتْ برأسي فقالت ... أمشيبٌ أمْ لؤلؤٌ منظومُ
قلتُ شيبٌ وليس عيـباً فأنَّتْ ... أنَّةً يستثيرُها المهمـومُ
وأكتستْ لونَ مرِطها ثم قالتْ ... هكذا منْ توسَّدتهُ الهمومُ
إنَّ أمراً جنى عليكَ مشيبَ الرَّا ... سِ في جمعهِ لأمرٌ عظيمُ
هُو عندي من الهُموم التي يحْـ ... ـسن فيها العزاءُ والتسليمُ (١٨)

إنَّ الأنا الشعرية لعلي بن الجهم بدأت عليها الانكسارية أمام الآخر (المرأة) ، وإن كانت مبطنة بشيء من التبرير بقوله :(ليس عيباً) ، فالشيب أحدث جلبة للأنا الشعرية التي حاولت أن تدفع عن نفسها الضيق والأسى ، نافية ما فيه من العيوب ، لكن الأمر لم يسلم ، فقد أصبح عائقاً ومصدراً للتساؤلات لدى الآخر (المرأة) ، فهي تستفهم عن سبب ظهوره لدى الأنا الشعرية وفي الوقت ذاته جعلها الشاعر تتألم وتشاركه همومه وكأنه يريد استثارة مشاعرها بوصفه نوعاً من التعبير عما حلَّ به ((فإذا كان التعبير عن الانفعال شكلاً من اشكال التعبير عن الذات ، فإنَّ استثارة الانفعال من الآخرين لا شك - شكل آخر من اشكال التعبير عن الذات)) (١٩) عله يزيح به عن ذاته بعض اضطرابها وتألمها إزاء هذا الضيف الثقيل ، وهذا التفسير المنطقي لدى الأنا الشعرية مستمد من مجموعة تجارب ((والفصل بين التجارب الذاتية ومعانيها الانسانية الاجتماعية أمر متعذر فغالباً ما تكون الموضوعات الذاتية او الكونية منافذ يطل منها الشاعر على مجالات انسانية أو اجتماعية بالغة المدى)) (٢٠).

وموضوع أية قصيدة قد ينشأ من تجربة مفردة يعاني منها الشاعر، إلّا أن صورها توحي بالتجربة الكلية لحياته ، ولفظ الكلية ينشأ من عبارة خيالية ، تخلق استجابة انسانية تتخطى حدود الموضوع إلى التجربة الإنسانية ذاتها في جميع الجوانب، وحسبنا أن نورد هنا ما يعاني منه الإنسان وما يتمناه في آن واحد ، ولعل ما يمتلكه علي بن الجهم من صلة بالواقع مكنّه ذلك من أن يكتشف نفسه بنفسه :

الشَّـيبُ ينهـاهُ ويزجُرهُ ... والشَّوق يأمــره ويعـــذره

وإذا توقَّـر شـيبُ مفرقِه ... خرقتْ مدامـعُ لا تُوقـــرهُ
وإذا أسرَّ هوى أشادَ بهِ ... دمـــعٌ يصرّعهُ ويحـــذرهُ
كيفَ استسرَّ هوىً يفيضُ بهِ ... لحظٌ فصيحٌ ليسَ يستره (٢١)

إنّ تعبيراً كهذا يقود (الأنا) الشعرية إلى انفصال عن المجتمع ، وتكوين رؤية منفصلة عن الذات تتبنى وجهة نظر معينة تدفع إلى الغياب؛ ولأن الزمان والشيب هما المؤسسان الحقيقيان لصنعة الشاعر الفنية ، فهذا يعني أن الارتداد إلى الماضي يحمل في طياته مغزى عميقاً في اللاوعي، يتمثل في ايقاف الزمن الحاضر لما فيه من سوء الطالع بالنسبة للشاعر .

فهو يصور معاناته مع الشيب تصويراً لا يخلو من الأسى والانكسار ، إنَّه الكشف عن خبايا (الأنا) ، فهو يندفع للكشف عن افكاره مستخدماً اسلوب (الآخر / الأنا) محولاً افكاره إلى غيره لإحساسه بابتعاد النساء عنه ، والملاحظ في النص أنّه يقوم على تقابلية جميلة تتبدى فيها نوازع الصراع مابين الشيب الذي ينهاه ويزجره والشوق الذي يأمره ويعذره ، فضلاً عن الوقار الذي يؤطره الشيب ، لكن هذا الوقار خرقته المدامع والعيون التي باتت تفضح الهوى وتدل عليه ، فتعامل الشاعر بهذه الاسلوب مع التناقضات يعد نزوعاً إلى الذات المستبطنة ، وكشف احاسيسها . فالتقابل يعد نمطاً اشارياً ، وأنموذجاً سيميائيًا ، ينفذ به الشاعر إلى بعض المعالم الكونية أو الاجتماعية أو النفسية (٢٢) وهي هنا ، انعكاسٌ لنفسية علي بن الجهم التي باتت تشعر بأنه ليس له دورٌ مع الغانيات :

إنّما ذنبي إليهـــــنَّ المشيبُ ... فَتَى يعْفونَ أمْ كيْفَ أتـوبُ
غاب قاضٍ كـانَ يقضي بيننا ... ومنَ الغيَّابِ منْ ليس يؤُوب(٢٣)

فالمرأة هي الكيفية التي تدرك بها الذات نفسها والعالم المحيط بها ، وهي التي تقود إلى ابداعات خصبة وثرية ، وهذا الوعي المتولد في (الأنا) يبدأ من خلال تحويل الآخر إلى صورة لغوية تخييلية ، القصد من ذلك التأثير في المتلقي ولفت انتباهه إلى قيمة المرأة من خلال التفاعل الشديد بينهما، كونه موضوعاً وكياناً وبين الشاعر الذي يتحول إلى أداة تعبيرية للفعل الانساني ؛ لأن الوعي بالآخر يتطلب تمييزاً بين الذات والموضوع ، ولكن بما أن الشعر هو تعبير عن ماهية الانسان ، فإن الشاعر يعكس هذا الأثر ؛ لإسقاط وعيه على العالم ، كما لو أنه معطى علينا أن نكتشفه ، ولا يكون ذلك إلّا من خلال الأثر الفني والغرض منه تحويل صورة الشعر إلى مصدر يعكس جمال المرأة وروعتها ، وهذا يستدعي تجربة يكون التقرب فيها أكثر وهي هنا رمزٌ ومعلمٌ من معالم الحياة يوظفه الشاعر في مواجهة معالم اخرى في بناء قصيدته بناءً عضوياً درامياً متكاملاً ، ولهذا نجد أن اغلب القصائد التي تحدثت عن المرأة ماهي إلّا رسالة أراد بها الشاعر إيصالها ترميزاً لواقع معلن سواء مع (الآخر) (المرأة) أم غيرها ، ومثل هذه الانسيابية تلقي بظلالها على النص ؛ لينفتح

على اساليب جديدة تتقارب مع تواصلية الحدث وحركيته ،ما يولد عن عنصر الديمومة الجوهري للقصيدة فتراه يقول في معاناته وانكساره امامها :

اعلمـــــــي يا أحبَّ شيءٍ إليَّا ... أنَّ شوقــي اليــكِ قاضٍ عليَّا
إنّ قضى الله لي اليك رجــوعا ... لا ذكرت الفراق ما دمتُ حيَّا
إنّ حَـرَّ الفــراقِ أنحلَ جسمي ... وكوى القلبَ منكِ بالشَّوق كيّا (٢٤)

تظهر هذه الابيات نمطاً جديداً من العلاقات التبادلية المتقاطعة بين الأنا والآخر ، يكتنفها العهد المبالغ به من لدن (الأنا) إلى (الآخر) فجاء ليكشف عن مدى الوقائع والذكريات المتشذرة في قلب علي بن الجهم ، وربما كان هذا الاتصال الذي ينشده لشدة احساسه بألم الفقد الذي يعانيه ، فالمرأة هي السر الذي يمثل الرغبة في الوصول إلى شيء بعيد المنال ، فالتعاطي معها لم يكن مصدراً للغواية بقدر ما كان تناولها جمالية لا متناهية تحاول (الأنا) اكتشاف عوالمها واسرارها ، إنها سر الحياة ، والعالم الآخر الذي يسعى الشاعر إلى مناجاته ؛ لتتسع التجربة الشعورية المصطبغة بالخيال الابداعي الذي لا يتوقف حدود دلالته عند قصيدة معينة ، بل يتعداها إلى قصائد اخرى على وفق احاسيسه ومشاعره ؛ ليكون الانكسار أمامها ليس عيباً بقدر ما هو مطلبٌ ، فتراه يقول :

الدَّمعُ يمــــحوُ ويدِي تكتُب ... عزَّ الهوى وامتنعَ المطلبُ
أمَا وعيْـــنيْ قمرٍ أحـــورٍ ... إليهِ مِنْ لحظتِهِ المــهربُ
ما أغمضتْ عينِي ولا أقلعتْ ... دمعتـها مذْ هو لا يعتبُ
ما زلتُ أسترضيه مِن ذنبِهِ ... فليس يرضى وهو المذنبُ (٢٥)

فالأنا العاشقة ينتابها الحزن الدائم وهي تستجدي الرضا من الآخر المعشوق ، إنها جدلية قائمة بين (القبول والصد) جعلت من الأنا الشعرية هائمة تبحث عن بوادر الإصرار في استقطاب (الآخر) الذي اصبح بعيد المنال وعزَّ مطلبه ، فجاءت الافعال (يمحو ، تكتب ، عز ، امتنع ، أغمضت ، اقلعت ، يعتب ، زلت ، استرضيه ، يرضى) تترجم حالة الشاعر وهو يخط معاناته مع (الآخر) ، وكأنه يبحث عن اصداف بحرية تغوص في رمال يريد جمعها ولكن دون جدوى .

فهذه السنفونية التي تعزفها لنا (الأنا) الشعرية والتي تكتنفها الانكسارية تكشف عن لنا عن واقع حال في طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر ، والتي قد تصل احيانا إلى حد الشعور بالإحباط لاسيما عندما يجد الشاعر أن الآخر لا يتجاوب معه فيعتريه احساسٌ بالتفرد والوحدة والفراغ ، إذ يقول :

ألا هلْ من مسعدٌ يبكي لِشجوي ... فأنّي هائمٌ فرد غريبُ (٢٦)

والذي لا شك فيه أن احساس الأنا هنا بالتفرد، نابع من حقيقة ثابتة ادركها الشاعر ، بأن المرأة أو الآخر تمثل الوجه الآخر للحياة ، أي بمعنى آخر هي آصرة انتمائه إلى الواقع فإن فقد هذه الآصرة فقد انتماءه للواقع

، وهذه الدلالة تنطوي على التمزق النفسي وفقدان الاتزان، لتكون بذلك مشاعر الغربة النفسية هي من تتحكم بمصير (الأنا) فالآخر أصبح هو الواقع الذي يشتاق إليه الشاعر ويتمنى حضوره ورؤيته ، لاسيما بعدما كان مفصولاً عن العالم في سجنه فتراه يرد على من استغرب جلوسه في المقابر متذكراً أحباءه :

يشتاقُ كلَّ غريبٍ عندَ غربته ... ويذكرُ الأهلَ والجـــيرانَ والوطنا
وليس لي وطنٌ أمسيتُ أذكُرُهُ ... إلّا المقابر إذ صارتْ لهم وطنا(٢٧)

إنّ انفراد أنا الشاعر بهذه المعاني ، هيأ له جواً من الغربة الروحية وانكساراً معنوياً يلفه التشاؤم والسكون والانقطاع ، بعدما أحس بفقدان الآخر(الأهل والاحبة) الذين كانوا هم أمله المنشود ، ولكنهم أصبحوا في عداد الماضي ومجرد ذكريات بقيت راسخة في مخيلته ، فأصبحت المقابر هي البديل لهم والمكان الذي يجمعهم ، وكأني بالشاعر يريد أن يرد على من يستنكر عليه جلوسه في المقابر، بأن هذا الجلوس ليس حباً بالمقابر بل هو حبٌ بمن سكنها واودع فيها ، إنه الشعور بألم الفقد والحرمان الذي تحس به الأنا وهي تتوق لرؤية الآخر .

ثانياً : تجليات الأنا المعتدة أمام الآخر

يرى علماء النفس أن في اعماق النفس الإنسانية ميلاً إلى تأكيد الذات والحصول على منزلة عالية في الجماعة ، وهذا ميل طبيعي شامل لأفراد المجتمع وطبقاته (٢٨) ، بل أن هناك حاجة اساسية إلى تأكيد الذات (٢٩) ، وهذا الأمر يصدق على كثير من المجالات التي ترصد الذات فيها اخطاراً وتتعرض إلى شتى الوان الاضطهاد تداهمها محاولات الالغاء عندئذٍ تضطر الذات – عن طريق الوعي أو اللاوعي- إلى البحث عن سلوك آليات نفسية كي تثبت نفسها وتقوي إرادتها ، وتصعد عن عزيمتها وتزيد من نفوذها إزاء الآخر ، ومن أهم هذه الآليات (الاعتداد بالذات) ، وقد يكون ذلك من اجل بلوغ الكمال الذاتي ، إذ يحسب الفرد لنفسه حساباً كبيراً يجعله يسمو في رفعة شأنه من خلال وسائل العلو التي لها قيمة معتبرة (٣٠) ، وتتضح هذه آليات بقدرة الشاعر على تبديل الواقع (الآخر) الذي لا يحقق له وجوده في الحياة ، وبذلك تتجسد في الشاعر همومه وهموم عصره ، فهو يريد أن يصنع لنفسه مكانة يثبت من خلالها وجوده وكونه فاعلاً في المجتمع، والميل إلى هذا الاتجاه ينشأ دائماً حينما يجد الشاعر نفسه غير منسجم مع الآخرين .

وهذا الوعي المتولد في الذات الإنسانية يتبدى من خلال تحويل الآخر إلى صورة لغوية تخيلية القصد من ذلك التأثير في المتلقي ولفت انتباهه، وقد جعلها علي بن الجهم عن طريق الآخر (المرأة) والتي جاءت بكل ما تحمله من معاني الخضوع، لتكشف عن حقيقة الذات وتعريها فيقوم الشاعر عندئذٍ بترميز الشخوص واستخلاص الحكمة، لأن الرمز جزء من عالم لمعنى الإنساني، فتراه يقول:

أقلّي فإنَّ اللَّومَ أشكلَ واضــحُهْ ... وكَمْ مِن نصيحٍ لا تملَّ نصـائحُهْ
على مَ قعدتِ القُرفصى تعْذُليني ... كأنَّي جانٍ كلَّ ذنبٍ وجارحُهْ

متى هانَ حرٌّ لم يرِقْ ماء وجهه ... ولم تُخْتبرْ يوماً بردِّ صـــفائحُهُ
وكم من عدوٍّ بـاتَ يحرُقُ نابهُ ... عليَّ كما يستقدح المرخ قـادحهُ
أعاذل لم أجرحْ كريماً ولم أُلُمْ ... لئيماً وبعضُ الشرِّ يجمحُ جامحهُ
وإلّا يكنْ مالي كثيراً فإنَّني ... كثيرٌ إذا ما صاح بالجيشِ صائحُهُ
وأقبلتِ الأبطالُ جُرداً وصافحتْ ... رجال بأطراف القنا منْ تصافحُهُ(٣١)

إنَّ الرؤية التي توصل إليها علي بن الجهم تقدم لنا صورة لوعي الإنسان بالآخر ، فكل صورة ناجحة هي علاقة لقاء ناجح مع الحقيقة، من هنا تتكشف علاقة الشاعر بالمرأة (الرمز) على إنها نزوح نحو الآخر ورغبة للاندماج به في اطار وعيه الخاص ، بمعنى آخر أن صورة المراة العاذلة قد باتت واتضحت معالمها ، إنها رؤية الشاعر لذاته ، فالصورة هي صورة الشاعر والصوت هو صوته أيضًا ، معنى هذا أن الإنسان تواق إلى تحديد معالمه من الآخر .

فالنص كما نرى تتصارع فيه جدلية تكشف عن الجوانب المستبطنة لذات الشاعر وهي تتقلب بين ثنائية الإقدام والإحجام، أي بين الدعوة إلى الاستكانة والخضوع والرضوخ واحجام الذات، وقد مثلتها (العاذلة) (الآخر / الأنا المنكسرة) ، وبين الإصرار والثبات والشجاعة والعزيمة والإقدام في مقارعة العدو(الأنا المعتدة) ، لتظهر بذلك بسالة وإقداماً وهي تحاول أن تعدد الفضائل لتكون بالنهائية هي الكفة الراجحة التي تبتغيها ذات الشاعر في مواجهة الآخر .

إنَّ تقمص الشاعر بصورة الآخر (المرأة العاذلة) ،أظهرت لنا صفات الشاعر المعتدة ، إذ حاول من خلال العاذلة أن يبين رؤاه وما يكتن بداخله من مواقف . إذن علينا أن لا نغفل عن دور الآخر في انجاز عملية الوعي الذاتي ، فنحن نقيّم أنفسنا من خلال وجهة نظر الآخرين ، فوجهة نظر الآخرين عملية تقويمية لوعينا ، وعملية الوصول إلى الذات تتم في أحيان كثيرة من خلال خلق جزئيات مكمِّلة لبعضها ، لنرى أنفسنا في الآخرين تماماً كما يتم تأمل أنفسنا في المرآة، فالآخر المرأة باتت هنا ((رمزاً أو معلماً من معالم الحياة يستخدمه الشاعر في مواجهة معالم أخرى في بناء قصيدته بناء عضوياً درامياً متكاملاً))(٣٢) ، ووسيلة للردع وإثبات الذات وبيان مناقبها واعتدادتها كما في قوله لمن تسأل عن قومه :

إنْ كنتِ جاهلةً بقومي فسألي ... أينَ النبوَّة والقضـــاءُ العادلُ
قومي اولئك إنْ سألتِ وإنما ... يجلو العمى عنهم اللبيبُ السائل (٣٣)

فالرمزية للمرأة هنا، أخذت تكشف عن اعتداده بنفسه الذي تصاعد بشكل جمعي (النحن)، حينما يشعر بمسؤولية الانتماء لقومه وتفخيم صورتهم أمام الآخرين، وهي في الحقيقة وسيلة غايتها إعلاء شأن المجموعة التي ينتمي إليها الشاعر ، فتتلاحق صورة الـ(الأنا) في اشكال متعددة ، فهو فرع من الاصالة التي ينتمي إليها، فيسعى مفاخراً بنفسه وبآبائه وبقومه الذين سموا بعدلهم وطيب منبتهم وعراقة نسبهم .

فالرؤية الذاتية للقصيدة في شعر علي بن الجهم انمازت ببناء رؤية تشكيلية وسياق تداولي لم يمنع المتلقي من أن يتفاعل معها ، ولهذا نجد أن أغلب قصائده التي اراد بها الاعتداد بذاته كانت المرأة (الآخر) هي الفكرة أو الرسالة التي أراد الشاعر إيصالها إلى الآخر ؛ بوصفها رمزاً لواقع معلن سواء مع المرأة أم مع غيرها ، ومثل هذه الانسيابية تلقي بظلالها على النص لينفتح على اساليب قول جديدة تتقارب مع تواصلية الحدث وحركيته ، فتراه يقول مرة أخرى مخاطباً إياها :

صلي واسألي من شئتِ يخبركِ أنّني ... على كُلّ حالٍ نعم مستودعُ السرِّ
وما أنا ممّـــن سار بالشّعر ذكـرُه ... ولكنَّ أشعاري يسيرّها ذكري (٣٤)

فرؤية الشاعر لذاته هنا ، يكتنفها شعور مختلف عما درج عليه ، فالمعروف أنَّ شهرة الشعر بما فيه من الجودة واللباقة ، هي من تعرف قائله للناس وتكسبه الشهرة ، ولكن اعتداد الشاعر بنفسه وبمآثره وبصفاته وذكره الحسن هي ما صبغت به اشعاره حتى عرفت به ، فأضافت على شعره الجمال والرونق والسيرروة والمكانة الرفيعة ، إنها رؤية الشاعر لذاته أمام الآخر (المرأة) التي عملت على إعادة انتاج المعنى الذي رسمه ، ولتكون نوعاً من التشفي بما يدور في المجتمع العباسي من عادات وقيم متنوعة أو لنقل : هو نوع من انواع ذم السلطة(٣٥) ، فجاءت المرأة كوسيلة للوصول إلى غاية، ينفد من خلالها إلى مضمون الفكرة بتوظيف خلاق يجسد فيه تشكيلات فنية عدة ، شكلت بمجملها قدرة فنية رائعة لحالته التي تنسجم مع وضعه وهو في السجن :

ألَمَّتْ وجنحُ الليلِ مُرخٍ سدولَه ... وللسجنِ أحراسٌ قليلٌ هجـــودُها
فقلتُ لها أنّى تجشـــمتِ خطّـــةً ... يحرّج انفـــاسَ الرّياح ورودُها
فقالتْ أطعنا الشـوقَ بعـد تجلّد ... وشر قلوب العاشـــقين جليدُها
وأعلنتِ الشّكوى وجالتْ دموعها ... على الخد لما التف بالجـيد جيدُها
فقلتُ لها والدمعُ شتى طريقـــه ... ونار الهوى بالشـوق يذكى وقودُها
إذا سلِمتْ نفسُ الحبيبِ تشابهتْ ... صروف الليالي سهـلها وشديدُها
فلا تجزعـي إمَّا رأيتِ قيـــودهُ ... فان خلاخيل الرجال قيودُها (٣٦)

إنَّ علي بن الجهم يقدم صورة لذاته ، وهي مليئة بالعنفوان رغم ما اصابها من المعاناة ؛ ليظهر بذلك اعتداد الأنا بتماسكها أمام الآخر (السلطة) التي اجبرتها على الرضوخ في ذلك المكان المظلم ، معتمداً على صورة (الرمز) للمرأة الحبيبة من خلال الحوار الذي يجري بين الذات الشاعرة وبين المرأة الحاضرة / الغائبة بصيغة الفعل الماضي (ألمت ، فقلت ، فقالت ، وأعلنت) ، إنما هو حضور مختلق لا حقيقة له ، إنّه وسيلة لقتل الوقت اللامحدود داخل حدود الحبس ، فهذه الحبيبة الحاضرة الغائبة ، ماهي إلّا ذكريات الشاعر الجميلة حينما كان حراً وقبل أن تطاله يد السلطة القامعة ، ثم أن هذه المصاعب التي تخطتها الحبيبة فهي في سبيل

الوصول إلى الذات الشاعرة ، إنما هي دلالة واضحة على رحلة الشاعر في هذه الحياة المليئة بالصعاب ، فتغدو الحبيبة (الآخر) معادلاً موضوعياً لإرادة الذات الشاعر التي تتسم بقوة تحملها صعاب الحياة ، وتتجلى هذه القوة في فخر الذات الشاعر بنفسها ((خلاخيل يرتديها الرجال) ، فهو يطلب من الحبيبة الذكريات أن لا تجزع من رؤيته مكبلاً بالقيود، فما هذه القيود إلّا خلاخيل يرتديها الرجال . ولعل وراء هذه الرؤية ، وهذا الموقف دوافع نفسية زينت الادعاء العريض المزخرف. وأوجز تعليل لتلك الدوافع ، إنها فعل تعويضي عما تصاب به الأنا الشعرية من سقوط وهوان وعليه فهي هنا تريد أن تعيد إليها قيمتها واعتدادها ، فيقابل الوقائع الصارخة بالادعاء الواهم ويضع التشامخ الرائع في مواجهة الذل الخافض ، والقوة في وجه الضعف ، أنه مسعى هادف للدفاع عن الذات في وجه الآخر ، ولهذا لبس علي بن الجهم لبدة الأسد ، وسل من ضعفه سيفاً باتراً يوعد به ويرهب من وراء الأسوار راداً على المرأة الرمز التي أخذت تحاوره :

قالتْ حُبستَ فقلتُ ليسِ بضائرِ ... حَبْسي وأيَّ مُهَنَّد لا يُغمدُ
أو ما رايتِ اللَّيث يألفُ غـيلهُ ... كِبراً وأوبـاشُ السِّباعِ تردَّدُ
والشمس لولا انها محـــجوبة ... عن ناظريكِ لما أضـاءَ الفرقدُ
والبدرُ يُدركُهُ السَّرار فتنـــجلي ... أيَّامُـــهُ وكـأنَّـــهُ متجددُ
والحبسُ مالم تغشهُ لدنيّـــةٌ ... شنعـاء نعـم المنزل المتوردُ
بيتُ يجدّد للكريمِ كرامـــةً ... ويزارُ فيه ولا يزورُ ويُحفدُ (٣٧)

بهذه الملامسة والحوارية التي نقرأها ندرك أن تصارع الوعي مع وعي آخر له ما يبرره ، وهذا يشكل مجالاً للتداخل العلائقي بين الشاعر ومحبوبته ، وهي قيمة جمالية تبقى ملتصقة بالذات ، فيها استجابة تلقائية للقفز على الواقع ومحاولة تفسيره بهذه الطريقة المتعالية ، فالأنا الشعرية رغم جراحها ، إلّا أنها مكابرة لا تنكسر بوجه الآخر (السلطة)؛ لأنه كالسيف الذي ادخل في غمده ، وهذا الغمد لا يقدح بمضاء السيف وحدته، كذلك السجن لا ينال منه ولا يقدح برجولته وصلابته ، وقد زاد الشاعر من اعتداده بذاته من خلال ما أتى به من تشبيهات جميلة ؛ ليعمق من صورته وكبريائه وعنفوانه وهو داخل سجنه ليدل على صبره وتجلده . ولا يخفى أنَّ المكابرة والتعالي على الجراح تدفع الأنا إلى خلق علاقات جديدة غير مألوفة في الوعي الجماعي ، فتراه يقول :

ما عابهُ أنْ بـــزَّ عنه لباسُهُ ... فالسَّيفُ أهولُ ما يُرى مسلولا (٣٨)

فالشاعر معتد بذاته رغم القيود، وهو مجرد من الثياب ، والمصلوب في العراء يمثل حالة إنسانية غير مألوفة في الوعي الجماعي ، وهي حالة تقتضي الشفقة على هدر إنسانيته بصرف النظر عن الجرم الذي ارتكبه ، ولكن هول المشهد الإنساني وعمق المعاناة التي تجرعها الشاعر جعلاه مكابراً ومتعالياً على المصيبة التي أحلت

به ورافضاً الإقرار بالألم والذل والهوان أمام الآخر ؛ انتصاراً لذاته التي لم تهزم وانتقاماً من الآخر (السلطة) التي لم تنل منه إلّا بتعريته فهو لا يبالي بما حل به ، فتراه يقول :

حلبنا الدَّهر اشطره ومـرت ... بنا عقب الشدائد والرخـاء
وَما حَبْسُ الخليفة لـي بعارٍ ... وليسَ بمُؤيسي منهُ التَّنائي (٣٩)

إنَّ المتأمل في البيت ، يجد الشاعر يصور حاله في السجن بثراء دلالي يقتضي التأمل في السياق المكاني النفسي، فالشاعر لم يقدح في عزيمته وتجلده ، فقد مرَّ بتجارب وشدائد قبل السجن جعلته قادراً على تحمل أعباء السجن وتكاليفه ، فإذا كان السجن جزءاً من أهوال الدهر فإنّ الشاعر قد تغلب على أهوال الدهر كلها ، فأضحى الدهر حيواناً أليفاً ينقاد بيسر ليحلبه الشاعر، فالسجن على وفق ذلك المفهوم فهو لا شيء عند الشاعر . ولا يخفى البناء التجسيمي الذي حوى عنفوان الأنا الشعرية يوحي إلى هوان احوال السجن في نظر الشاعر . فتجليات الأنا المعتدة بنفسها والتي تحاول أن تظهر الشموخ والتعالي بائنة في اغلب قصائد الشاعر ، وكأنها تحاول أن ترسم خطاً بيانياً واضحاً لـ(أنا) الشاعر من اول يوم دخل فيه السجن متعالياً على النكبة ، مستخفاً بالنازلة معتداً بالذات حريصاً اشد الحرص على أن لا يشمّت الآخر (السلطة) ، وألا يقرَّ عيون حساده بضعفه، فلم ينظر إلى الحادثة إلّا كما ينظر الشامخ إلى الامواج العاتية ، وكأنها دفقات من الماء جاءت لتغسل قدميه ، ثم لا تلبث أن تدعها خاسئة ذليلة ، فتراه معتزاً بذاته أمام الآخر :

إنَّ خسَّ حظِّي من مـال تخوَّنهُ ... صرَّف الزَّمانِ فما عِرْضي بمخسُوسِ
أو تغفلُـــوني فأيَّامـي تُذكركُمْ ... أو تحْبسُوني فما شِعرِي بمحبُوسِ(٤٠)

فالاعتداد بالذات يظهر رغم ما فيه من معاناة ، وحظه السيء ودائرة الايام عليه ثقيلة جداً ، إلّا أنه يعتز بسبب سجنه ، فإن كرامته وعرضه مصانان وخاليان من أي تهمة ، فالأيام كفيلة بتذكيره لا سيما وأنه في السجن ولا يمكن أن يطال شعره وكلماته ، فالشاعر وأن كان سجيناً مادياً فإنه حر طليق نفسياً من خلال قصائده وكلماته، إشارة منه إلى قوة شعره وديمومته التي لا يمكن حبسها لأي سبب كان ، مبطناً ذلك فخره واعتزازه بنفسه وشعره وفكره .

غير أن إدراك الشاعر للآخر لا يعني بالضرورة فهمه فهماً منطقياً ؛ لأن العلاقة بينهما قد تكون خارجة عن حدود المعقول ، هذا إذا ما قلنا أن موضوع التفاعل بين الذات والآخر ، قد تعني المواجهة وعليه ، فالذات بما تحمل من عبء اكتشاف الآخر بقدر ما تعاني من اكتشاف نفسها إذ تتداخل معالم الاشياء وسماتها تداخلاً يضفي إلى احتمالات لا متناهية من هذا التداخل فتكون - عندئذٍ - أنا الشاعر أكثر عمقاً وتفاعلاً إذ تطلب الأمر من الشاعر الدفاع عن الوطن ، فالوطن هو المعشوق داخل ذات الشاعر وارض المعركة هي التي تستدعي الأنا التي أخذت تعتد بشجاعتها وبطولاتها حيث الصلابة والثبات في الموقف في عصر تحولت فيه البطولة ((إلى رؤية تنطوي على موقف)) (٤١) :

ولمَّا رأيتُ المـــوتَ تهْفو بنـودُه ... وبانتْ علاماتٌ لهُ ليس تنكرُ
وأقْبلت الأعرابُ من كل جانبٍ ... وثار عجاجٌ أسودُ اللّون اكدرُ
بكلِّ مشيحٍ مستميتٍ مشمِّـــرٍ ... يجـولُ به طرفٌ أقبَّ مشمَّرُ
بأرضٍ خساف حين لم يكُ دافعٌ ... ولا مانع إلَّا الصـفيح المذكرُ
فقلَّل في عينيَّ عُظم جُموعهـم ... عزيمةُ قلبٍ فيهِ ما جلَّ يصغُرُ
بمعترك فيـــه المنايا حـــواسرٌ ... ونار الوغى بالمشـــرفية تسعرُ
فما صُنْتُ وجهي عن طباتِ سيوفهم ... ولا انحزتُ عنـهم والقنا تتكسَّرُ
ولم اكُ في حرِّ الكريهة محجـــماً ... إذا لم يكنْ في الحربِ للوردِ مصدرُ
منعتهـــمُ أن ينالـــوا قلامـــةً ... وكنت شجُاهم والأسـنَّة تقطرُ(٤٢)

هذه الوقيعة التي تنفس بها النص هي التي تستدعي (الأنا) وبقوة ؛ لتفرض نفسها في المجتمع الفوضوي ، وتقدم نفسها ذاتاً قادرة على المجابهة ، وتقديم (الآخر) العدو على أنه العاجز أمام سطوتها واندفاعها، فأنا علي بن الجهم كانت حاضرة وبقوة بوصفها تعبيراً دقيق عن حسن البطولة عند كل إنسان يحقق نصراً ، بحيث تدلنا الذات أن محطة الارتكاز فيها ارض المعركة (رأيت الموت ، أقبلت الأعراب ، فقلل في عيني ، عزيمة قلب ، صنت وجهي ، ولا انحزت عنهم ، ولم اك في حر الكريهة محجماً ،) ، فهذه المفردات تجعلنا نتصور ضراوة المعركة وخشونتها بين الطرفين وما آلت إليه، حتى راح الشاعر يعدد مفاخره ويقيم ذاته وهو في ارض المعركة؛ ليؤكد بذلك بطولته وفروسيته من خلال (أناه) المستمدة من واقعه المضطرب ، وقد سعى شاعرنا إلى إظهار ذاته وتوكيدها .

ومحصلة القول : إنَّ ما يقوم به الشاعر نابع من شعوره بتأكيد ذاته، أي البحث عن الذات ، أو ما يسمى بلغة علم النفس أزمة البحث عن الهوية (٤٣) لاسيما عند إحساسه بالتفاوت ، فهو مشحون بمشاعر الاضطهاد بينما (الآخر) نراه مشحوناً بمشاعر الكبرياء ، وهذا التفسير يضعنا أمام بناء نفسي لا يتوقف ؛ إذ لا يقتصر الأمر على هذه الحال بل يضع الشاعر في دائرة الانكسار ، نلمس حينها شعوراً بالتمايز والتفوق يتكرَّس بعده إفراد الشاعر ونفيه عن ذاته ، وبذلك يكون الانفصال اكثر عمقاً وتأثيراً عندما يتجاوز هو الآخرين ، وهذا يتصل في الأغلب بظروف العصر التي تشكل رؤية الشاعر ، عندئذ يلغي الانقطاع كل توافق مع الآخر.

الهوامش

[1] التكيف النفسي ، مصطفى فهمي ، ١١١.

٢ موسوعة علم النفس ، اسعد رزوق ، ١٤٨.
٣سيكولوجية العلاقة بين مفهوم الذات والاتجاهات ، د. عبد الفتاح محمد ، ٣٩.
٤ في النقد الأدبي ، د. عبد العزيز عتيق : ٣٨٨/٣.
٥ علم النفس المفاهيم والدلالات ، د. سعد حسن يحيري ، ٧٨.
٦ المكان ودلالاته ، يوري لوتمان ، ٨٣.
٧ديوان علي بن الجهم ، تحقيق خليل مردم بيك ، ١٨٣.
٨نفسه ، ١٥٥.
٩الهندسة الصوتية الايقاعية في النص الشعري دراسة نصية ، ١٨٩.
١٠الديوان ، ١٥٩.
١١نفسه : ١٤٦-١٤٩
١٢نفسه ، ٦٥.
١٣الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة ، مصطفى سويف ، ١١٨.
١٤الانتماء وظاهرة القيم العربية في القصيدة الجاهلية ، د. حسين جمعة : ٨٦.
١٥الديوان ، ١٧٧.
١٦يوسف وهبة والمنهج التكاملي ، مراد وهبة ، ٢٨٧
١٧مقالات في الشعر الجاهلي ، يوسف اليوسف ، ١٨.
١٨الديوان : ١٩٦.
١٩خمسة مداخل الى النقد الادبي ، ٨٩.
٢٠النقد الادبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، بيروت ، ١٩٨٢، ٣٩١.
٢١الديوان : ١٤٥.
٢٢ منازل الرؤية ، منهج تكاملي في قراءة النص ، سمير شريف ، ٧٨.
٢٣الديوان : ٦٩.
٢٤نفسه : ٢٢٤.
٢٥نفسه : ٦٩.
٢٦نفسه : ٦٩.
٢٧نفسه : ٢١٦.
٢٨علم النفس الاجتماعي، أوتوكلينبرغ علم النفس الاجتماعي ، راد نوكلنيبرغ. : ١٦٢- ١٦٤.
٢٩ مفهوم الذات بين الطفولة والمراهقة د. وعد الشيخ،: ١٥.
٣٠علم النفس، محمد شريف سليم ، المطبعة الاميرية ، القاهرة، ١٩١٤م : ١٨٧.
٣١الديوان : ٨٦.
٣٢الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر ، خليل موسى ، ٤٤.

[٣٣]الديوان : ١٨٤.

[٣٤]نفسه : ١٣٩.

[٣٥]ينظر حركية الصراع في القصيدة العباسية ،د.ناظم حمد خلف : ١٤٢-١٥٠.

[٣٦]الديوان : ١١٢.

[٣٧]نفسه : ٩١.

[٣٨]نفسه : ١٨٦.

[٣٩]نفسه : ٥٩-٦٠

[٤٠]نفسه : ١٢٥.

[٤١]المتخيل السردي ، عبدالله ابراهيم ، ٣١.

[٤٢]الديوان : ١٢٠

[٤٣]ينظر : موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، د. عبد المنعم حنفي : ٣٧٩/١.

المصادر والمراجع

- الاسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة ، مصطفى سويف ، دار المعارف ، مصر ، (١٩٨٠) .
- الانتماء وظاهرة القيم في القصيدة الجاهلية ، د. حسين نعمة ، (بحث) مجلة التراث العربي ، دمشق ، عدد ٦٣، (١٩٩٦).
- التكيف النفسي ، مصطفى فهمي ، مكتبة مصر دار الطباعة الحديثة ،القاهرة . (١٩٨٨)
- الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر خليل موسى ، مطبعة الجمهورية ، دمشق. (١٩٩١)
- حركية الصراع في القصيدة العباسية ، د. ناظم حمد ، دار العراب ، سوريا. (٢٠١٢).
- خمسة مداخل الى النقد الادبي ، تصنيف وليكر سكوت ، ترجمة عناد غزوان ، دار الرشيد ،بغداد ،(١٩٨١) .
- ديوان علي بن الجهم ، تحقيق خليل مردم بيك ، دار صادر ، ط٣، بيروت، (١٩٩٦)
- سيكولوجية العلاقة بين مفهوم الذات والاتجاهات ، د. عبد الفتاح محمد،دار المعرفة الجامعية ، القاهرة. (١٩٩٩).
- علم النفس، د. محمد شريف سليم ، المطبعة الاميرية ، القاهرة. (١٩١٤).
- علم النفس الاجتماعي، راد نوكلنيبرغ ، تر: حافظ الجمالي مكتبة الحياة ، ط٢، بيروت، (١٩٦٧).

- علم النفس المفاهيم والدلالات ، د. سعد حسن بحيري،مكتبة الانجلو المصرية ،مصر (١٩٩٣).
- في النقد الأدبي ، د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية، بيروت، (١٩٧١).
- المتخيل السردي مقالات نقدية ، عبدالله ابراهيم ، المركز الثقافي ، بيروت، (١٩٩٠).
- مفهوم الذات بين الطفولة والمراهقة ، د. وعد الشيخ ، دار كيوان ، ط١، دمشق. (٢٠٠٦)
- مقالات في الشعر الجاهلي، يوسف اليوسف، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،(١٩٧٥).
- المكان ودلالته ، يوري لوتمان، ، تقديم سيزا قاسم ، مجلة البلاغة ، عدد ٦، القاهرة (١٩٨٦)
- منازل الرؤية ، منهج تكاملي في قراءة النص ، سمير شريف، دار الأوائل للنشر (٢٠٠٣)
- موسوعة علم النفس ، اسعد رزوق، ، المؤسسة العربية والنشر ، ط٣ ، بيروت ، (١٩٨٧).
- موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، عبد المنعم حنفي،، دار العودة ، لبنان. (١٩٧٤)
- النقد الادبي الحديث ، محمد غنيمي هلال، دار العودة ، لبنان. (١٩٧٤)،
- الهندسة الصوتية والايقاعية في النص الشعري دراسة نصية ، عبد الرحمن جدوك مراجعة ، مركز الحضارة العربية ، ط١، القاهرة. (٢٠٠٠).
- يوسف وهبة والمنهج التكاملي مراد وهبة ، الهيئة المصرية للكتاب ،(١٩٧٤).